المحور الأول: مفهوم الثقافة: وأنواعها

يعتبر مفهوم الثقافة من بين المفاهيم المثيرة للجدل والاختلاف، وذلك يبدو جليا بين الأكاديميين والمفكرين على حد سواء، فقد استخدمت تخصصات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلوم الدراسات الإنسانية مجموعة كبيرة من التعريفات، ويرجع البعض تطور كثير من التعريفات إلى كونها لا تتميز بالوضوح بين المفهوم من ناحية، والأشياء التي يشير إليها من ناحية أخرى، لكن أغلب التعريفات العلمية تشير إلى التعليم والاكتساب كوسيلة لتناقل الثقافة واعتبار الثقافة هي طرائق وأساليب الاستجابة للتحديات التي يواجهها الإنسان في تفاعله مع الطبيعة، ويمكن فهم خصوصية الثقافة بإعتبارها تمثل نظام القيم الأساسي للمجتمع.

المفهوم الاصطلاحي:

يعد مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولا وشيوعا ومن أكثرها غموضا وتعقيدا، وهو المفهوم الذي تساقطت أمامه جهود الباحثين الذين حاولوا تعريفه وتحديد ملامحه . ولقد وقع "كلكهون "على مئة وستين 160 تعريفا للثقافة وذلك منذ خمسة وعشرين سنة، ولعل من أقدم التعريفات للثقافة وأكثرها ذيوعا حتى الآن لقيمته التاريخية تعريف" **ادوارد تايلور** "الذي قدّ مه في أواخر القرن ال 19 في كتابه " الثقافة البدائية "عام 1871 الذي ترجم إلى الفرنسية سنة1876 بأن "الثقافة والحضارة هي ذلك الكُل المركب الذي يشمل المعرفة، المعتقدات، الفن، الأخلاق القانون، العادات وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع"..

أبرَزَ تعريف" إدوارد تايلور "العناصر اللامادية للثقافة التي تنتُج نتيجة التفاعل المجتمعي بين الأفراد ، إضافة إلى كل العناصر التي يكتسبها المجتمع من خلال العلاقات الاجتماعية، وذلك بفعل عملية الاتصال ومن ثمة اكتساب العناصر المادية المكونة للثقافة إجمالا. فبالرغم من القيمة المعرفية لتعريف" تايلور "فهو يصطبغ بطبيعة أنثروبولوجية تُفسر المجتمع وموروثاته المختلفة بناءًا على المكونات المادية واللامادية للثقافة. بالإضافة إلى ذلك، فهناك تقارب كبير جدا بين الثقافة والحضارة، من ناحية التركيبة المتنوعة فهي شملت كل ماله علاقة بالمجتمع والإطار المجتمعي للفرد، لذا يمكن ملاحظتها في الواقع واستنتاج تأثيرات هذه المكونات على الهوية المشكّلة لها على المستويين الفردي والجماعي. كما أوضح" تايلور "شمولية الثقافة على القدرات التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع؛ الأمر الذي يجعل أهم عامل في هذا الاكتساب هو القدرة على التعلم من الجماعة.

ويعرف" **دورثي لي"** الثقافة بأنها نسق من الرموز بواسطته يعطي الافراد معنى لكل ما هو موجود حولهم، فالسلوك الإنساني كما تُحدده الثقافة نسق يربط الفرد أو الكون ، أو الطبيعة ، بعالمه سواء أكان ذلك العالم هو المجتمع فسلوك الفرد في أي ، المتعارف عليه أو الحقيقة المطلقة (Ultimate Reality) موقف اجتماعي ما هو إلا تعبير عن هذه العلاقة، فالإطار الثقافي لأي مجتمع يتشكل من تصرفات أفراده، معارفهم، تفكيرهم، وتفسيرهم لكل ما يدور حولهم، وبذلك تضع الثقافة القوانين المنطقية والمبادئ الفكرية والحدود الثابتة فهي تُقدم لأفرادها الدليل الذي يرشدهم في تفسير كل ما هو موجود في مجتمعهم، فيوجههم إلى طرق وأساليب العمل التي تُمكنهم من القيام بدورهم في المجتمع في حدود إمكانياتهم.

ويرى" محمود أمين" في الثقافة : "بأنها رؤية شاملة للعالم بمستوى أو آخر، تتجلى أو تتجسد فرديا ومجتمعيا في المفاهيم، القيم، ظواهر السلوك، الممارسات المعنوية، العملية الحياتية المختلفة،

توحِدها اللغة في المجتمع الواحد، وان تنوعت بتنوع فئات هذا المجتمع من حيث مواقعها الاجتماعية ومواقعها الفكرية، بما يشكل الخصوصية الثقافية والقومية العامة لهذا المجتمع.

فهي عبارة عن مزيج من المعرفة، العقائد، الفنون، الأخلاقيات والقانون، العادات، القيم والتقاليد...كما تُعد سلوكا مكتسَبا أي أن الفرد لا يرثها وإنما يتعلمها عن طريق التعايش مع مجتمع معين، فالطفل مثلا ينمو في مجتمع له ثقافته الخاصة وتتكون الثقافة لديه من خلال ما يتعلمه، وما يمر به من خبرات ومعارف وتجارب في حياته ومن خلال عمليات الاتصال بالمجموعات التي ينتمي إليها، فالثقافة تنتقل من جيل إلى جيل من طرف المجتمع وأفراده، إن معتقدات الفرد وقيمه وعاداته وغيرها من مكونات الثقافة تؤثر على الطريقة التي يستجيب بها الفرد لمواقف معينة في حياته اليومية، فكل واحد منا مثلا يتأثر تقييمه للسلع والخدمات المعروضة بالثقافة.

ومن أهم أنواع الثقافة نذكر:

1.الثقافة النخبوية :هي الثقافة التي تحصلت عليها نخبة من المجتمع بواسطة عدة وسائل منها الكتابة وهي ثقافة مكتوبة لا يتحصل عليها إلا من يعرف القراءة والكتابة، وهي تعبر عن مواقف المجتمع عندما تكون نابعة منه، وهي التي يطلق عليها" محمد عابد الجابري "اسم" الثقافة العالمية "والتي تضم حسبه طريقة الحياة المادية والروحية لكي تمنح لكل أمة خصوصيتها، وهي معدن الهوية، حيث تمتد من طريقة الملبس والمأكل والضحك إلى مكونات الذاكرة الجماعية والخيال الاجتماعي والإرسال الرمزي.

فهي تستعمل لتشير إلى المعطيات ذات الخصوصية المتميزة بدرجة عالية في الرقي، فهي تعتبر من جانب الوسط الثقافي أعلى درجة الإبداع الإنساني، فالأعمال الفنية ذات الحضور المستمر تُعد مثالا عن الثقافة العالية، وتتضمن أعمالا مثل :الأوبرا والسمفونيات الكلاسيكية ل"بيتهوفن "و"موزار "واللوحات الفنية مثل" ليوناردو دافنشي "وكذلك أعمال" شكسبير "و"جون ملتين"، والعديد ممن يستعمل مصطلح الثقافة العالية، التي ينظر إليها كشكل أرقى من أشكال الثقافة.

من أبرز صفات الثقافة النخبوية أنها تنحصر في طبقة دون باقي الطبقات المجتمعية، طبقة تعيش رخاء ورقي اجتماعي، لدرجة أنها لا تهتم بكل ما تهتم به الطبقات الأخرى والتي هي دون المستوى الاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي، فهُم في مكانة تسمح لهم بالاستمتاع بكل مترَفات الحياة، في حين الذين لا يملكون وقت لهذا الرُقي والبذَخ المادي، يكونون في مراحل التفكير كيف يحسّنون مستواهم المادي، ومع ذلك يملكون ثقافة تميز مستواهم ومكانتهم بين باقي الثقافات وهي تسمى بالثقافة الشعبية.

2. الثقافة الشعبية :هي عكس الأولى وهي الثقافة الشفوية التي ينقلها المجتمع من جيل لآخر شفويا كالشعر الملحون والحكايات والعادات والتقاليد، وفي الغرب تسمى الفلكلور من غناء ورقص، وهذا الفلكلور الذي يعبر عن تفاعل مباشر بين الناس بشكل متناغم تتبوأ فيه الكلمة الشفهية المكانة الأولى، أما أحدث تعريف للفلكلور فقد أصدره مؤتمر الفلكلور الذي عقد في" أرنهيم" هو المأثورات « سنة 1955في توصياته؛ حيث يعرف الفلكلور بالنظر إلى مادته على أنه وهو أيضا العلم الذي يدرس "oral tradition"الروحية الشعبية وبصفة خاصة المأثورات الشفوي بمعنى الناس وهي "folk " من مقطعين "folk-lore" هذه المأثورات، ويتألف اصطلاح فلكلور بمعنى معرفة أو حكمة؛ فالفلكلور حرفيا هو معارف "lore" و "folc" الكلمة الانجليزية القديمة الناس أو حكمة الشعب.

ففي بعض الكتب والمراجع ينظر لها على أنها ثقافة الناس العاديين وخاصة أولئك الذين يعيشون في مجتمعات ما قبل الصناعة، فثقافة العامة تتكون ذاتيا وهي متجانسة وتعكس مباشرة حياة وتجارب الأفراد؛ حيث تبرز كما تبرز الأعشاب من الجذور، وكمثال على الثقافة العامة: الأغاني التقليدية والقصص المتنقلة من جيل لجيل، وينظر لها باعتبارها أقل قيمة من الثقافة العالية

يرى" غرامشي "أن الثقافة الشعبية لا تقل أهمية عن باقي أنواع الثقافة الجماهيرية، فهي تكمن في حل مشكلة التغيير والتنمية، ويؤكد على عدم النظر للفلكلور على أنه مجرد رقصات، وغناء وكلمات شعبية تعبّر عن آراء ومعتقدات الطبقات المجتمعية الشعبية؛ بل أنه صورة أخرى للحياة بطريقة جادة وهو انعكاس للأفراد وطريقة معيشتهم.

لكن بتدخل وتطور الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيرية أثّر على طبيعة هذا النوع مخلفا ما يسمى ب"جمهرة الثقافة"؛ هذه الأخيرة التي تعبّر عن طبقة لها إيديولوجية معينة، محاولةً فرضها ليس على طبقة واحدة؛ وإنما على كل الطبقات المجتمعية لتخلق نمطا واحدا عالميا.

3. الثقافة الجماهيرية :الثقافة الجماهيرية أو جمهرة الثقافة عن طريق وسائل الاتصال الجماهيرية، وما تحاول كسبه على حساب المادة الإعلامية التي تقدمها هذه التقنيات الحديثة، فهي تسعى إلى كسب عدد كبير جدا من الجماهير وبالمقابل التأثير عليهم ببثها مسلسلات، إشهارات، أغاني... معتمدة على الجانب المعياري الاستهلاكي القوي كقاعدة لتنفيذ أفكارها. إذن هذا النوع من الثقافة يختلف تماما عن النوعيين السابقين، فإذا كان الإنسان هو العامل المحرك في الثقافة النخبوية وخاصة الشعبية؛ ففي الثقافة الجماهيرية تعتمد على التقنية كعامل أساسي إلى جانب الفرد في توسيع أفكارها ومنتقياتها الاستهلاكية.

فهي مفهوم جديد يختلف عن النوعين السابقين وهي مرتبطة بوسائل الاتصال وتنتقل بواسطتها، وهي تؤثر على أفراد المجتمع بالتكرار وطول الزمن، وبذلك فهي غالبا ما تصطدم بالنوعين السابقين .

شهد مفهوم الثقافة الجماهيرية نجاحا كبيرا في الستينات ومرد هذا النجاح كان جزئيا، لعدم دقته الدلالية والجمع بين مصطلحي" ثقافة "و"جماهير"، وعليه فليس مفاجئا إن أمكن استخدام المفهوم لبسط تحاليل ذات توجهات بائنة الاختلاف، بعض علماء الاجتماع شأن" إدغار" مثلا يشددون على نمط إنتاج هذه الثقافة الذي يخضع إلى ترسيمات الإنتاج"Edgar Morin" الصناعي الجماهيري أن تطور وسائل الاتصال الجماهيري يتوازن و إدراج ما بات محددا من مؤشرات الإنتاجية والمردود في كل ما يهم الإنتاج الثقافي" الإنتاج "ينزع إلى تعويض" الإبداع."

إنطلاقا مما سبق هناك اتجاهين بالنسبة للثقافة؛ أحدهما يذهب إلى أن ثقافة الجماهير تُذيب الفوارق الثقافية الموجودة، والتي يعتبرها" جورج ديهاميل "من مقومات الفردية الخالقةindividualisme" .إن مستوى الثقافة الجماهيرية قد ارتفع بشكل ": « يقول" دوايت ماكدونالد" كبير مع تطور وسائل الإعلام وازدياد قدرتها، ولكن التحسن الذي ظهر هو نفسه إفساد للثقافة العليا، فما من شيء أكثر فجاجة من الثقافة الجماهيرية المتطورة.

المحور الثاني: مكونات الثقافة وخصائصها، ووظائفها

❖ مكونات الثقافة

يمكننا تقسيم مكونات الثقافة إلى ثلاث فئات رئيسية هي: عموميات- خصوصيات – بدائل، وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

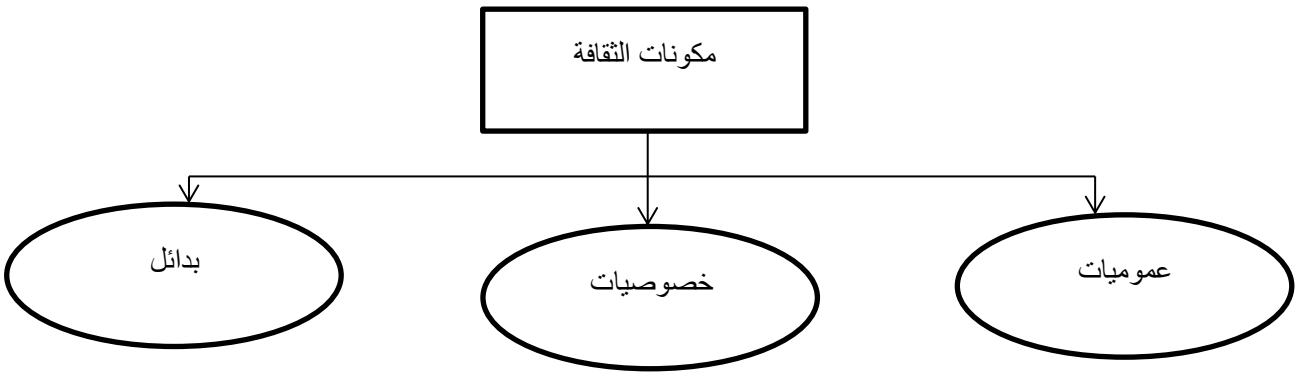

1-**عموميات الثقافة:** هي العناصر الثقافية العامة التي يشترك فيها جميع أعضاء المجتمع وهي العناصر الاكثر أهمية بالنسبة لأفراد المجتمع وتشمل: الدين، اللغة، منظومة القيم والمعايير التي تحكم تصرفات الأفراد داخل المجتمع والعادات والتقاليد وتأتي أهمية هذه العموميات بإعتبارها العناصر التي توحد أبناء المجتمع.

2-**خصوصيات الثقافة**: هي عبارة عن السمات الثقافية التي تتحلى بها جماعات خاصة داخل المجتمع مثل: الطبقات الإجتماعية أو الفئات المهنية، فلكل منها مهارات وممارسات وجوانب معرفية بل بل وأنماط سلوك تختص بها وتتميز بها عن بقية الشرائح –بحكم الأنتماء الطبقي أو التخصص الوظيفي أو المهني- إلا أن بقية الأفراد في المجتمع ليسوا بمعزل كامل عنها، إذ أن كثيراً منهم يحيطون بها إحاطة عامة.

3-**بدائل الثقافة:** هي في الغالب عناصر دخيلة على ثقافة المجتمع، إذ تتسرب إلى الثقافة بسبب إتصالها بثقافات أخرى –وتظل لفترة – قد تطول أو تقصر- موضع التجريب حتى يتقبلها المجتمع ويضمها إلى ثقافته أو يرفضها.

❖ الخصائص العامة للثقافة:

هناك خصائص عامة تتسم بها كل الثقافات وهذه الخصائص تتمثل فيمايلي:

1-**قابلية الثقافة للتعلم**: الثقافة تكونت عبر عصور ومراحل تاريخية، حيث تعلمها وإكتسبها المجتمع، ثم أضاف إليها خبراته.

2-**قابلية الثقافة للتناقل**: تناقل الثقافة من جيل إلى جيل وهو الذي يعمل إستمرارها وهذا التوارث هو الذي يكون التراث الثقافي.

3- **تكامل الثقافة**: حيث يحدث ترابط بين السمات الثقافية المتشابهة من جهة وبين الجوانب المادية والمعنوية للثقافة من جهة أخرى، وإذا فشلت الثقافة في تحقيق أي منها ففي هذه الحالة يواجه المجتمع ما يعرف بالتخلف الثقافي.

4- **الثقافة متغيرة ومتطورة**: تتغير الثقافة في الشكل والمحتوى طبقا لحاجات المجتمع، والتطور الزمني بالرغم من المقاومة الاولية التي يبديها المجتمع لمواجهة تيار التغيير.

5-**إنسانية الثقافة:** تختص الثقافة بالعنصر البشري دون غيره من سائر المخلوقات لأن الإنسان له تاريخ يتذكره وستفيد من خبراته، لذلك كان للغته فضل كبير في توصيل أفكاره وخبراته إلى الأجيال التالية.

6- **الثقافة إجتماعية شاملة:** تضم كل أفراد المجتمع بجميع طوائفه، لا تنتقي أفراداً معينين من المجتمع دون غيرهم، وحتى الثقافات الفرعية الخاصة بفئات معينة داخل المجتمع نجدها تصب في الثقافة الام في النهاية، فهي ثقافة جمعية في النهاية.

7- **الثقافة نسيج معقد**: تتكون من عناصر كثيرة ومتشابكة من الإتجاهات والأفكار والعادات وغيرها تتداخل فيما بينها.

8- الثقافة ديناميكية: تشكل الثقافة مسرحاً لكل القضايا السياسية والإيديولوجية التي تتشابك مع بعضها البعض، فهي مخزون المجتمع من أفضل ما عرفه وفكر فيه، ترتبط بقوة في وقت ما بـ "الأمة" أو "الدولة" وهنا نتميز "نحن" عن "الآخرين" ، وبهذا المعنى تكون الثقافة هي مصدر الهوية .

❖ وظائف الثقافة:

تتنوع طبيعة الوظائف التي تقوم بها الثقافة والتي يمكن من خلالها الحكم على رقي المجتمع ودرجة نضجه من خلال تأدية الثقافة أهدافها ووظائفها في المجتمع، والوظائف التي تقوم بها الثقافة تتمثل في الآتي:

1-العمل على إشباع الحاجات (البيولوجية) والنفسية لأفراد المجتمع

2-إكساب الفرد الخبرات اللازمة للتعامل مع مجتمعه

3-تمثل نوعا من انواع الضبط الإجتماعي بما تفرضه من معايير السلوك لا يستطيع الفرد الخروج منها

4- تمييز المجتمعات عن بعضها البعض

5-المحافظة على الوحدة والتنوع داخل المجتمع، بأن تحقق نوعا من التوازن بين عمومية المبادئ وخصوصية الطقوس

6-استيعاب الثقافات الفرعية داخلها، دون تعارض بين العام والخاص

7-تشكيل البناء العضوي لأفراد المجتمع وتحديد الادوار وطبيعة العلاقات والتعاملات بينهم

8- المحافظة على التراث القديم للمجتمع والعمل على نقله للأجيال الجديدة

9-الثقافة تمثل خط الدفاع الأخير ضد أي غزو أيا كان نوعه

لقد جاء في المادة الاولى من إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي الذي أصدره المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة " أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب إحترامها والمحافظة عليها، ومن حق كل شعب ومن واجبه أن ينمي ثقافته، وتشكل جميع الثقافات بما فيها من تنوع خصب، جزءا من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعا، وعليه فالثقافة حق لكل الشعوب والمحافظة على الذاتية الثقافية والدفاع عنها واجب وطني لا يمكن التخلي عنه، كما أنها زاد الشعوب وتاريخها وهي ما يميزها عن غيرها".

❖ الهوية الثقافية:

أولا: مفهوم الهوية

يعرف قاموس (لونجمان) الهوية بأنها : " الإحساس بأنفسنا وماضينا ومستقبلنا، وهو إحساس متواصل مستمد من مشاعرنا و أفكارنها وإحساس بذاكرتنا واهدافنا وقيمنا وتجاربنا والاحساس بالفردية والاستقلال"، وقد أخذ هذا المصطلح عربيا من " هو" بمعنى جوهر الشئ وحقيقته المشتملة عليه وهوية الشئ " ثوابته" التي تتجدد ولا تتغير...إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره.

وهي الشفرة التي مكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه أو يتعرف عليه الآخرون بإعتباره منتميا إلى تلك الجماعة، فالهوية هي كيفية رؤية الشخص لنفسه في مواجهة الىخر، وتعني الخصوصية والتفرد، وهنا يبرز بعد جديد للهوية لا يعتمد على اتساقها ووحدتها بقدر ما يقوم بالآخر كذات وهوية، وأصبحت الهوية لا تتحدد بمكوناتها فقط، بل يضافة إليها علاقتها بالآخر مما يشير إلى أهمية الآخر بما له من قيمة وفعل في تكوين الهوية والهوية من الحاجات الأساسية اللازمة للانسان وهي ضرورية في كل مراحل حياته وتتشكل منذ الطفولة، ثم تتبلور وتتضح في مرحلة المراهقة.

ثانيا: الهوية الثقافية

الهوية الثقافية مفهوم أكثر شمولاً وتعقيداً، يتميز بتعدد أبعاده مقارنة بالهوية بمفهومها العام، وتظهر أدبيات البحث للهوية الثقافية عدداً من التعريفات، فالمنظمة العربية للتربية تعرفها بأنها " النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد سلوك ونوع القرارات و الأفعال الأصيلة للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع مع الإحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة، ومميزاتها الجماعية التي تحدد بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة، وطموحات الغد باعتبارها لسيت مركبا جامدا من الخصائص والقيم والتقاليد، ولكنها مجموعة من المشاعر والأفعال، ومن السمات التاريخية والابعاد الفكرية والفنية والروحية، وتتجدد وتعيد خلق ذاتها في إطار خصائصها لأنها في حركة داخلية مستمرة، وتتعذى بالإسهامات الخارجية عن طريق الإستعاب والتحوير والتمثل، إنها السعي الدائم إلى مشروع ثقافي جديد يكفل خلق المستقبل من أضلاع الماضي".

❖ الثقافة والنظام الإجتماعي:

حدد "بارسونس" الاشياء الثقافية، باعتبارها عناصر رمزية للتقاليد الثقافية او نماذج القيم، وعليه فإن الثقافة تتضمن أشياء مثل: لغة المجتمع والرموز الاخرى كالأعلام والعقائد حول الصحيح والخطأ، وكذلك الفنون والأدب، وهكذا فإن "بارسونس" اعتمد تعريف واسع للثقافة حيث ميز الثقافة عن البيئة المادية وعن الشخصية الفردية، حيث يرى أن المجتمع الإنساني غير ممكن بدون ثقافة مشتركة، فهي تسمح للناس بالاتصال والفهم فيما بينهم وبالعمل باتجاه أهداف مشتركة إن وجود ثقافة مشتركة هي شرط وظيفي مسبق أو حاجة أساسية لأي مجتمع يريد البقاء وهو يقول إن نظام متقن للفعل الإنساني غير ممكن بدون نظام رمزي مستقر نسبيا.

❖ قضايا متصلة بالهوية الثقافية

تتصل الهوية الثقافية بعدد كبير من القضايا المتعلقة بالفرد والمجتمع، والأمة وتتمثل أساسا فيمايلي:

1-**الإنتماء**: ينتج الإنتماء عن شعور الفرد بإنتسابه إلى الجماعة وتحديد مكانته ودوره فيها تعبيراً عن حاجة اساسية لديه، وما يرتبط بذلك من الإلتزام بوعي والشعور الفرد يكونه جزءا من مجموعة أشمل (كالأسرة، أو القبيلة، أو الحزب، أو الأمة) التي ينتمي إليها ومع حاجة الإنسان للإنتماء يتولد مفهوم الهوية، ولذلك حين تتهدد الهوية يتهدد معها كل فرد ينتمي إليها.

2-**الولاء**: فحين يقتصر الإنتماء على الجماعات الإنسانية فقط، فإن مفهوم الولاء يتسع ليشمل الأفكار أيضاً، والاصل في الولاء هو المشاعر تجاه الجماعة او الفكرة، فيمكن للفرد أن ينتمي إلى جماعة شكلا وليس قلبا، فالولاء شعور عنيف يربط الانسان بشئ ما قد يكون المجتمع الذي يولد فيه ويستقر على أرضه ويشعر فيه بالأمن والآمان مع من حوله.

3-**الوطنية والمواطنة**: الوطنية هي الروابط العديدة التي تربط الفرد بوطنه من مشاعر وأحاسيس وذكريات وتدفع افراده للتوحد والتماسك تحت لوائه في جميع فترات العسر واليسر، أما المواطنة فهي صفة المواطن والتي تحدد حقوقه وواجباته الوطنية في اوقات السلم والحرب والتعاون مع المواطنين الأخرين في تحقيق الأهداف القومية، والمواطنة علاقة إجتماعية تقوم بين شخص طبيعي وبين مجتمع سياسي(الدولة) ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول **الولاء** ويتولى الثاني **الحماية**.

4-**الجنسية:** تعني الإنتماء القانوني لشخص ما إلى مجموعة أو امة، لها نظام سياسي يصدر قرارات سياسية بهذه الجنسية ويعرفون بها، وقد تكون الجنسية أصلية أو مكتسبة.

المحور الثالث: الإمبريالية الثقافية

الامبريالية الثقافية هي حالة تغليب الثقافة الأجنبية على ثقافة الشعب وما خلق هوة بين ماضي ذلك الشعب وحاضره وبينه وبين تراثه الثقافي مما يؤدي إلى رفع شأن الحضارة الأجنبية، وطمس معالم الحضارة المحلية أو الوطنية وفرض نوع من الاغتراب على أبناء الشعوب المستضعفة والمغلوب على أمرها، ينسون فيه أنماط حياتهم وقيمهم الموروثة وتقاليدهم الخاصة ويخسرون بسبب استقرارهم الوطني وسمعتهم القومية ويتمزقون بين ماضيهم وحاضرهم.

وحاولت الدول الإستعمارية التي سيطرت على الاقطار العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى غزو الثقافة العربية والتصدي لها وطمس معلمها الحضارية والإنسانية وتزوير حقيقة ماضيها والطعن بوجودها وأهميتها في تنمية وتطوير الامة العربية.

أولا: العولمة الثقافية: ما الذي يحمله إعلام العولمة؟

إعلام العولمة يحمل ثقافة العولمة، والتي تنبع من الثقافة اللبيرالية، وتقول لبيرالية العولمة لا ثقافة للعالم غير ثقافة العولمة، فثقافة العولمة تدعي: الفلسفة-الحرية- الديمقراطية- حقوق الإنسان- الإقتصاد.

فالعولمة الثاقفية ترى العالم بعين واحدة ومنظور واحد هو الثقافة اللبيرالية، فقيم هذه الثقافة تقول إن الحقيقة والتمدن والتقدم كل هذا لا يمكن أن يطلب خارج حضارة الغرب، لذلك تدرك العولمة، أنها لا تستطيع أن تستمر إلا بتهميش الآخر طمس ثقافته، وحرية السوق ستحل كل المشاكل وتقضي على البطالة والفقر وستحقق الرفاهية ليس في المجتمع الغربي فحسب بل في العالم بأسره.

منطلق العولمة: ثقافة الغرب هي المثل الأعلى + حرية السوق هي الكفيل بحرية البشرية

وقد برزت العولمة في مجال خطير الشأن هو المجال الحضاري بأبعاده الثلاثة: البعد التربوي –البعد الثقافي – البعد الإتصالي.

ويمكن تحديد عمليات العولمة في ستة نقاط أساسية:

-العملية رقم 1: تتعلق بإنتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس.

العملية رقم 2: تذويب الحدود بين الدول.

العملية رقم 3: زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات.

العملية رقم 4: تغزو مختلف الآفاق الإقتصادية والسياسية والثقافية.

العملية رقم 5: تعتمد على ثقافة اتصالية جد متطورة.

العملية رقم 6: تتجلى نزعة قوى كبير (أمريكا) للهيمنة على غيرها من الدول.

ثانيا: أهم مخاطر العولمة على الهوية الثقافية

- تحاول تحييد الذاكرة الفردية والجماعية، وبالتالي تحييد التاريخ الجماعي للامة لتبدأ تاريخا جديدا تسيطر عليه، وتعمل على تنميط رموزه وابطاله.
- تقوم على مبدأ التنافس و أن البقاء للأقوى، وهي تدفع البشرية إلى سباقات محمومة هدفها الفوز والربح المادي.
- تسعى إلى التوحد الثقافي مما يشكل كارثة ثقافية، يتم فيها قتل الابداع والتنوع والاختلاف، كذلك تسعى إلى تهميش الثقافة الوطنية واللغة القومية.

- تحاول القضاء على وحدة الدولة الوطنية عن طريق تشجيع الأقليات لإبراز خصوصياتهم، بهدف الخروج عن وحدة الوطن والتاريخ والمصير ، فيتم تشجيع الاختلافات الطائفية والعرقية والنوعية.
- تسعى إلى تطويع الابداع الأدبي والفني لدى الشعوب ذات الهويات الثقافية المتميزة بإغراقه في تسويق صناعتها وانتاجها.
- تسعى لاستبعاد الدين وتحييده عن مجال التأثير في توجيه شؤون الحياة، وتستدعي العلم وحده لكي يقوم بذلك التأثير وتحاول عن طريق العلم أن تثبت قدرتها على تقديم رؤية شاملة لهذا الواقع الانساني.
- لقد حملت العولمة معها عدة مفاهيم على غرار الثقافة العالمية والغزو الثقافي والإختراق الثقافي والاستثناء الثقافي.

ثالثا: الغزو الثقافي

هو أسلوب غير مادي يوظف من أجل تحقيق أهداف المعتدين في إخضاع الآخرين، ويعبر الغزو الثقافي بانه المحاولة من مجتمع ما لفرض قيمه على مجتمع آخر بالقوة، وقد اقترن هذا المفهوم أصلا بفترة الهيمنة الاوروبية على العالم، ودخل هذا المفهوم القاموس السياسي حديثا ليعبر عن الوعي السياسي للشعوب المتحضرة وإيمانها بدور الثقافة في تكوين دعامة بناء اجتماعي حيوي أصيل ومتجدد.

ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن هذا المصطلح هو مصطلح تقليدي، إذ أنه ليس هناك في الواقع غزو فكري تام بالمعنى المعروف لكلمة غزو والتي تعني الهجوم الإكتساحي وفي أغلب الاحوال يتم الغزو الثقافي بصورة اختراق أو تسلل، ويعتبر الغزو الثقافي وليدا غير شرعي للغزو العسكري، فهو لا يعتمد على المواجهة المسلحة أو استخدام القوة وهو أفضل للغزاة، إذ أن وسائل الغزو الثقافي نعيمة وخادعة ومحفوفة بالشهوات ، لذا فإن الاستجابة إليها تكون اسرع واكثر خلافا لوسائل الغزو العسكري التي تقوم على الدمار ، ان الغزو الثقافي قليل التكلفة مقارنة بالغزو العسكري ونتائجه ابعد، وتبقى الاجيال متأثرة به إلى زمن طويل، لأن الغزو العسكري تنتهي آثاره بإنسحاب قوات الاحتلال، فحين يبقى أثر الغزو الثقافي قائما في عقول وقلوب الناس وذلك من خلال محو الذاكرة التاريخية وتشويه التكوين النفسي وهذا ما يؤدي إلى اللامبالاة وفقدان الانتماء.

وإذا ما ألقيانا نظرة على الدول التي كانت تعرضت للغزو الثقافي سابقا للسيطرة الاوروبية نجد أن هذه الدول تعيش أزمة ثقافية، فمنهجها في الحياة منسوخ عن المنهج الغربي وعقول مثقفيها لا تدرك إلا النمط الثقافي الغربي، لذلك نجد المجتمعات هناك منقسمة بين فئة تعيش في غربة ثقافية وهي التي تمثل النخبة القيادية والمفكرين واخرى تمثل الثقافة الشعبية، تعيش في غربة ثقافية عن عصرها وهو ما يدل على أن الغزو الثقافي حقيقة أن ما جرى في الماضي يمكن أن يكون هو سبب ثورة الاتصالات والمعلومات بحيص يصل الغزو إلى الاعمار والبيئات المختلفة عارضا لأنماط الحياة شديدة التباين.

وتجدر بنا الإشارة إلى ان الغزو الثقافي لا يتوقف حدوثه على الطرف الغازي فحسب، وإنما على الطرف المتعرض للغزو، فإذا كان هذا الطرف لا يملك القدرة على تجديد ثقافته فإن المجتمع لا يقتنع **بالركود**، بل يبحث عن البديل وتتدخل المجتمعات الأخرى ذات المصلحة في التأثير لتلبية الحاجات فينشط التأثير الثقافي في حالة قبوله.

رابعا: الاختراق الثقافي

ليس هناك فرق كبير الاختراق الثقافي والغزو الثقافي فكلاهما يسعى إلى تحقيق الهجف نفسه، وغن كانا يختلفان في الوسيلة، إن الاختراق الثقافي مرتبط بالتطور التقني في مجالات الاتصال، فالمعلومات تتسرب وتتدفق والدولة المالكة للثقافة أصبحت أكثر قدرة على التأثير ثقافيا اتجاه الدول الأخرى، وبالتالي تعمل على اخضاعها دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية، ويتم ذلك من إنشاء نظام جديد للهيمنة والاخضاع الثقافيين هو نظام المسموع المرأي وهو نظام مختلف عن سابقه في درجة الفعالية على صعيد تكييف وعي الناس وإعادة صياغته عن طريق السيطرة على الإدراك ومنه تسطيح الوعي أي جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات الطابع الإعلامي والاشهاري المثير للإدراك والمستفز للإنفعال، وبالتالي تعطيل فعالية العقل وتكييف المنطق وتنميط الذوق وقولبة السلوك.

المحور الرابع: أهم الدراسات الثقافية

1- النظرية الماركسية في الثقافة والهوية:

يعتقد كارل ماكس أن الثقافة لها أصل مادي، حيث أن الظروف المادية والفعالية الإقتصادية طبعت الوعي الإنساني، وحالما يجتمع الأفراد مع بعضهم البعض يكونوا مجموعات إجتماعية، وينخرطون في نشاطات إنتاجية حتى عندما لا تدعو الحاجة لها، حيث يقول كارل ماركس إن الإنسان ينتج حتى عندما يتحرر من الحاجة المادية، فيقوم بالإنتاج لغرض المتعة الفنية بدلا من العمل فقط لغرض سد الجوع أو العطش.

كما يرى بأن الثقافة هي التعبير عن إيديولوجية الطبقة الحاكمة(المالكون لوسائل الإنتاج) تستعمل قوتها الإقتصادية لرسم ثقافة المجتمع، فالطبقة التي تمتلك وسائل الإنتاج المادية تكون لها السيطرة على وسائل الإنتاج الفكرية خاضعة لتلك الطبقة بمعنى أن جميع الثقافات في المجتمعات الرأسمالية هي نتاج لإيديولوجية الطبقة الحاكمة، أما الطبقة العاملة فتعاني من وعي طبقي زائف، حيث يمكن لهذه الطبقة أن تنتج أعمالا ثقافية تمجد الطغيان والإستغلال الموجود في المجتمع، وهكذا فإن الآداب والأشكال الأخرى للثقافة تميل لتعكس تجارب مختلف الطبقات الإجتماعية.

كما يرى "ماركس" و"أنجلس" أن ثقافة المجتمع ككل سوف تتغير في النهاية، فالوعي الطبقي سوف يتطور لدى الطبقة العاملة وسوف يصبح بإمكانها رؤية الأشياء وتقف الإيديولوجية المشوهة للطبقة الحاكمة، والرأسمالية سوف تستبدل بالشيوعية وفي غياب سيطرو واستغلال الطبقات الحاكمة يصبح بمقدور الأفراد العودة لإنتاج الأشياء المعبرة عن وجودهم الإنساني.

2- **الماركسيون الجدد والثقافة**:

طور عدد من الكتاب ما يسمى بنظريات الماركسيين الجدد للثقافة، وجميع هذه الإتجاهات تأثرت بالماركسية غير أنها تتفق على أن الثقافة تمتلك قدراً كبيراً من الحرية والإستقلالية من المؤثرات الإقتصادية أنه لا يوجد تطابق صريح وواضح بين الطبقة والثقافة.

وقد حاول ريموند وليمس (Raymond Williams) من خلال كتابه **الثقافة والمجتمع** تقديم مظهرين رئيسيين للنظريات الماركسية في الثقافة أولا: هو رأي أن إستعمال أفكار البناء التحتي والبناء العلوي مضللة، ولم ينكر وليامس تأثير العوامل الإقتصادية على الثقافة ولكنه أنكر قابليتها على صياغة الثقافة بشكل صريح وواضح، ثانيا: يعتبر أن النظريات الماركسية في الثقافة تهتم كثيرا باللغة والأدب، فهو يرى أن النظرية الماركسية تؤكد العلاقات المتبادلة بين جميع مظاهر الواقع الإجتماعي، بينما التركيز على حقل ضيق كالفن والأدب يجب أن لا يفسر كل شئ موازي للثقافة.

3- **مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة**:

يعتبر هذا المركز من أكثر المصادر تأثيرا على الثقافة في السبعينات والثمانينات في بريطانيا في ضوء الأفكار الماركسية الجديدة وقد توسع المركز في دراساته للثقافة لتشمل على ثقافة الشباب مستخدما عناصر الماركسية ضمن التحليل.

ففي كتاب **المقاومة عبر الطقوس**، قام "Clarke" ومعه آخرون يعرض اتجاه نظري في دراسة الثقافات الشابة وذلك بإستخدام إطار ماركسي موسع ليؤكدوا أن الظروف المادية تفرض قيودا على نوع الثقافات التي يوجدها الناس ومع ذلك فهم يتركون مساحة كافية للقدرات الإنسانية في خلق الثقافات.

فالأفراد يولدون ضمن ثقافة معينة وهذه الثقافة تميل إلى تشكيل الطريقة التي يرى فيها الأفراد للعالم، هذه الطريقة يسميها "كلارك" بخريطة المعاني (Maps of meaning) غير أن هذه الخرائط للمعاني والثقافات المتصلة بها سوف تتغير بتقدم التاريخ وبمدى فاعلية المجموعات الإجتماعية في خلق وإبتكار ثقافتها، هذه المجموعات لا تستطيع خلق ثقافات جديدة حسب رغباتها، فالثقافات ترتبط دائما بالخبرات والظروف المادية وهي تتشكل على الدوام ولو جزئيا، إن ثقافة الجماعة المسيطرة هي دائما تكون أكثر قوة من ثقافة الجماعات الأخرى، حيث إعتمد "كلارك" على نظريات "غرامشي" الماركسي الإيطالي لكي يؤكد أن تحقيق السيطرة الإيديولوجية والسياسية من جانب الطبقة القوية يتطلب الدخول في صراع ضد الإيديولوجيات المنافسة الأخرى والإتفاق على تسوية معها، فالصراع بين الطبقات حول الحياة المادية والإجتماعية يتطلب باستمرار صراعا دائما حول توزيع القوة الثقافية.

إن أعمال برمنغهام لم تحاول فقط تطوير اتجاه ماركسي في الثقافة وإنما شجعت أيضا علماء الإجتماع للبحث بشكل جدي في الثقافة الشعبية، إن تحليل مظاهر معينة في سلوك الجماعات الشابة (

كطريقة اللبس مثلا) إنما هي محاولة لدمج بعض عناصر (السيميولوجيا) في الإتجاه الماركسي الجديد للثقافة.

4-ثقافة النخب وثقافة الجمهور

يرى ليفس أن صيانة وديمومة الثقافة يعتمد على إحتفاظ الأقلية النخبوية بأكثر الأذواق تميزاً، ولكن في عام 1930 أصبح ذوق هذه المجموعة وثقافة الجماهير كلاهما تحت تهديد خطير، فالنخبة المثقفة تعرضت للتهديد من جانب المنتجات التي أفرزتها ثقافة الجماهير، وهذه المعطيات أو المنتجات أصبحت متوفرة لكل شخص وبكميات كبيرة مما أغرق الإحساس الجمالي لثقافة تلك النخبة، حيث يقول ليفس كان القارئ أثناء مراحل حياته يتحرك ضمن عدد محدود من الإشارات، حيث لم يكن التنوع فيها كبيرا، وبذلك فهو كان قادرا على اكتساب قدرة التفرد والتميز وهو يتجه على طول الخط، أما القارئ الحديث أصبح معرضا لسيل من الإشارات الهائلة في تنوعها وأعدادها مما جعل من الصعب عليه القيام بالتمايز مالم تكن لديه موهبة خاصة أو مزايا معينة، كما يرى أن الأضرار الثقافية نتجت عن مظاهر التحديث مثل إختراع السيارة وإنتشار الثقافة الأمريكية وتشتت العوائل وتأثير عمليات البيع والإنتاج الواسع والتنميط، لقد كان ليفس حادا في نقده للإعلام المسيطر أنذاك كالراديو والأفلام بإعتبارهما نوع من التسلية السلبية كونهما لا يشجعان الناس على التفكير ولا يسمحان بإستخدام العقل بشكل بناء والسينما خصيصا تعرضت للهجوم الشديد لأن الأفلام تستلزم الإستسلام والإنسياق وراء الإغراءات العاطفية في ظل أجواء من التنويم للمتلقي.

5-نظرية الثقافة الجماهيرية:

في عام 1957 شن برنار روسنبرك هجوما عنيفا على الثقافة الجماهيرية في أمريكا، فحسب رأيه بالرغم من المستوى المعيشي المرتفع الذي حققه المجتمع الأمريكي إلا أن ذلك كان على حساب الثقافة التي عانت من التدهور، فالتكنولوجيا الجديدة أزاحت معظم الأعمال اليدوية والتي استهلكت المزيد من وقت الأفراد، فحصلوا على المزيد من التسلية والراحة، ومع ذلك فهم يشعرون بأقل قناعة مما سبق، وقد إتبع ماكدونالد إتجاها مشابها لروسنبرك ولكن بشئ أكثر تفصيلا حيث ميز بين الثقافة العامة والثقافة العالية وثقافة الجماهير.

وقد أجاب ماكدونالد على السؤال لماذا أصبحت الثقافة الجماهيرية مشكلة؟ بقوله أن الثقافة الرديئة سوف تطرد الثقافة الجيدة والناس وجدوا أن الثقافة الجماهيرية سهلة الفهم وتأخذ القليل من الجهد الذهني ولذلك فهي قصد منها تجاهل وإضعاف الثقافة العليا، وذلك يؤدي إلى خلق ثقافة نمطية واحدة والثقافة العليا سوف تبتذل وتندمج بشكل مبسط من ثقافة الجماهير فمثلا: الثقافة العليا للمسرح سوف تقوض من جانب الثقافة الجماهيرية للسينما.

خلاصة:

تعتبر آراء ماكدونالد ضمن الآراء المتاشئمة فهو لا يرى أن هناك إشارات قوية لبقاء الثقافة العليا، وحتى جهود النخبة من الفنانيين والمبدعين هي تحت تهديد خطير من جانب الثقافة الجماهيرية، حيث أصبح الناس تحت طوق شديد من المجتمع الجماهيري والثقافة الجماهيرية بزخمها المتواصل مما

أحبط رغبتهم في المقاومة تحت تأثير منتجات لمدة أجيال من الثقافة الجماهيرية الساذجة، كما أنه يرى بأنه لاتزال ثقافة النخبة القليلة رغم ضآلة عددها وتأثيرها قادرة على إضاءة شعلة الثقافة العليا.

6-النظرية البنيوية Structuralism:

البنيوية هي من الإتجاهات المؤثرة في جراسة الثقافة، وقد برزت في الأساس من النظريات اللسانية والإتجاه البنيوي، يعتبر اللغة هي المفتاح في إدراك العالم الإجتماعي، فمعظم الحياة الإجتماعية تتم عبر اللغة وتنطبع بها.

يعتبر فرديناند دي سوسيور(1857-1913) المؤسس لعلم السيمولوجيا، حيث تم توظيف هذا العلم في فهم الثقافة حيث إستعمل هيج في عام 1979 السيمولوجيا في محاولة منه لفهم معاني عدد من ثقافات الشباب في بريطانيا بعد الحرب، حيث أنه يرى إمكانية فهم طريقة تصفيف الشعر لدى مجموعة من الشباب البريطاني، فالأساليب الثقافية لتلك الجماعات الفرعية أصبحت تشكل إشارات قوية للدفاع ضد المجتمع، وجميعها تؤكد الإنتماء إلى ثقافات فرعية معينة والتعبير عن المعاني لدى كل تلك المجموعات (فكل ثقافة فرعية تعبر عن نفسها).

السود البريطانيون كذلك طوروا ثقافتهم الفرعية طبقا للتشابه والإختلاف مع طريقة إرتداء الآخرين للملابس ففي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى كان المهاجرون الأوائل من المحيط الهادي يرتدون الملابس التقليدية الأنيقة التي عكست طموحهم في النجاح في بريطانيا وفي السبعينات وبعد الإخفاق الناتج عن البطالة والتمييز العنصري بين صفوف السود، بدأ هؤلاء التعبير عن ذلك بملابسهم وأسلوبهم الثقافي ذي الطابع الجاماكي الذي يعبر عن رغبتهم تجاه المجتمع البريطاني، إن الفكرة الأساسية في أسلوب الشباب السود هي المقاومة ضد سيطرة الثقافة البيضاء والتعبير عن الهوية السوداء.

7-ما بعد البنيوية Post-Structuralism :

يشير مصطلح ما بعد البنيوية إلى أعمال الكتاب جاك دريدا ، جاك لاسن، وميخائيل فوكت، حيث نجد أن:

-جاك دريدا: ركز على اللسانيات وعلى معاني اللغة.

-جاك لاسن: اهتم بالتحليلات السيكولوجية والفروقات الجنسية.

-ميخائل فوكت: اهتم بنشطات الجنس والجنون والعلاقة بين السلطة والمعرفة.

وقد صنف هؤلاء الكتاب ضمن ما بعد البنيوية لأن أعمالهم نشأت من رفضهم فكرة البناء واهتموا بأعمال ليفي ستراوس الذي أكد على اللغة.

رفض فريق ما بعد البنيوية نظرية لفي ستراوس بإمكانية وجود ابنية معينة ثابتة في المجتمع تعكس فكر الإنسان، ورفضوا كذلك نظرية ماركس القائلة بوجود بناءات معينة مثل(البناء الطبقي) تطبع العلاقات الإجتماعية ويصر فريق ما بعد البنيوية على أن اللغة تعكس فعلا أو تصف بعض الواقع أو

البناء، هم يرون أن اللغة هي التي تخلق الواقع بدلا من أن تعكسه، وإذا كان البنيويين يرون الحقيقة وراء أو ضمن النص، فإن أصحاب ماوراء البنيوية يؤكدون على التفاعل بين القارئ والنص، فالمعنى يرتبط دائما بالسياق المحدد الذي حصل فيه النقاش أما خارج ذلك السياق سيكون المعنى مختلفا تماما.

ركزت أفكار ما بعد البنيوية على أهمية اللغة والتي تم تجاهلها من قبل العديد من علماء الإجتماع(بما في ذلك الوظيفيين والماركسيين) ولكن التركيز على اللغة كان من أكثر الجوانب ضعفا لدى ما بعد البنيوية وبالمقدار ذاته من القوة، فالتأكيد على اللغة قاد فريق ما بعد البنيوية على تجاهل الواقع المادي، فثلا الماركسيون يجادلون بأن الثروة المادية لها نفس التأثير على المجتمع وبمقدار مساوي لنقاشات وطرق التحدث عن الأشياء وفي النهاية فإن الرأسماليين لديهم القوة في اتخاذ القرار بشأن البرنامج التلفزيوني أو الفيلم الذي يضع ويدعم، ولدى الماركسيين أنصار الأنوثة أن ثروة الرجال هي التي تجعل المرأة مضطهدة وليست طريقة إستخدام اللغة.

8-الحداثة وما بعد الحداثة:

أولا: ثقافة الحداثة:

يرى كروك (Crook) وزملائه أن هناك 3 خصائص رئيسية للحداثة هي:

1-التمييز: بمعنى أن الثقافة فصلت وتميزت عن مظاهر الحياة الأخرى، حيث انتجت من قبل المتخصصين الذين تدربوا في مؤسسات خاصة، ثم استهلكت في آماكن معينة، وهذا أدى بالنتيجة إلى وضع أساس للتمييز بين ثقافة العامة أي ثقافة الناس العاديين والثقافة العالية هي إنتاج المتخصصين من الأفراد والمؤسسات.

2-التشيوء: تحويل المنتجات الثقافية إلى أشياء او سلع يمكن بيعها وشرائها بسهولة (يحط من القيمة الجمالية ويهدد بقاء الفن الراقي).

3-العقلانية: طبعت الثقافة الحديثة، فالموسيقى تأثرت كثيرا بالعقلانية المنسجمة التي استخدمت فيها الرياضيات في خلق الموسيقى المتناغمة، أي إنتاج الموسيقى وأشكال الفن الأخرى وإستخدام التكنولوجيا لغرض تسهيل استنساخ وإعادة خلق الثقافة.

ثانيا: ثقافة ما بعد الحداثة

في مجتمعات الحداثة تميزت الثقافة عن مجالات الحياة الإجتماعية الأخرى وكذلك تميزت الثقافة العليا عن الثقافة الشعبية غير أن ما بعد الحداثة غيرت ذلك الإتجاه بشكل معاكس، حيث يقول كروك ورفاقه ظان تكثيف بعض العمليات ضمن أعمال الحداثة قاد إلى ما بعد الحداثة، فالتميز والعقلانية والتشيؤ جرى استبلهما بالتميز الواسع والعقلانية والتشيؤ الواسعيين وهذا ما أدى إلى نوع جديد من الثقافة أطلق عليه كروك بما بعد الحداثة.

-**التشيؤ الواسع**: كل مجالات الحياة الإجتماعية أصبحت ذات صفة سلعية خاضعة للبيع والشراء، ففي المجتمعات الحديثة بقيت بعض أوجه الحياة الإجتماعية بعيدة عن المتاجرة، وشكلت مصدرا رئيسيا للهوية مثل: الحياة العائلية، وبحصول التشيؤ الواسع بوجود غزو سلعي لكل مجالات الحياة الإجتماعية فكل نشاطات أصبحت خاضعة لبرامج التسويق السلعي والإستهلاك الذي كان يتم في المنزل وضمن أعضاء نفس العائلة أصبح وبشكل متزايد يأخذ طابعا مختلفا وذلك عبر إستهلاك مختلف الأشياء (فالأطفال أصبح لهم تلفزيون خاص بهم ويجلسون في غرفة مختلفة ويشاهدون برامج تلفزيونية وإعلانات مختلفة ويتناولون غداء مختلفا، فأصبح لكل فرد أسلوب حياة خاص به.

-**العقلانية المفرطة**: إستعمال التكنولوجيا في نشر الإستهلاك الثقافي على نطاق واسع وهذا ما يسمح بإختيار الزمان والمكان لإستهلاك المنتجات الثقافية، وهذا ما يساعد الأفراد في إختيار أسلوب حياتهم الخاص، فالمسارح وقاعات الموسيقى التي كان يجتمع فيها الناس ويستهلكون الثقافة في وقت واحد أصبحت أقل أهمية وهو ما أدى إلى خلل في التمييز بين الثقافة الأصيلة والثقافة الغير أصيلة فالإستنساخ الإعلامي وإعادة الإنتاج بدأت تحل محل الأصالة ومحل الأشياء الحقيقية التي تحتلها.

-**التميز المفرط:** حيث نشأت مختلف أنواع الأشكال الثقافية الجذابة دون سيطرة شكل محدد، فمثلا: الثقافة الشعبية تجزأت إلى عدد كبير من الأساليب المختلفة كل له مستمعيه الخاصين، وبما أن التنوع أصبح هو الطابع المميز، ذلك جعل من الصعب أن يدعى أي أسلوب معين تفوقه على الأشكال الأخرى، فأدى التقسيم المتزايد للتنوع المفرط إلى حالة من إزالة الفروق تحطمت فيها الحدود الفاصلة بين مختلف أشكال الثقافة وخاصة بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية السائدة في مجتمعات ما بعد الحداثة.

9- الثقافة من منظور مدرسة فرانكفورت الألمانية:

لقد تأسس المشروع الفلسفي لمدرسة فرانكفورت سنة 1923 في مدينة فرانكفورت على أنقاض معهد البحوث الإجتماعية والذي تولى تسيير شؤونه في البداية باحث أرثوذكسي(متشدد) للفكر الماركسي وهو نمساوي الأصل يدعى "كارل كرنبرغ" وبمجرد حلول عام 1930 تولى " ماكس هوركهايمر" زمام الأمور بالمدرسة، حيث شجع البحوث المتعددة التخصصات والتي تسترشد بالفلسفة الإجتماعية الماركسية على نطاق واسع، كما جذبت المدرسة إليها مجموعة متنوعة من المنظرين الماركسيين بما في ذلك " تيودور أدرنو"، والتر بنيامين" ، "هربرت ماركوز" ، "فرديريك بولوك"، "نيومان فرانتز" على الرغم من عدم وضوح ملامح المدرسة في البداية من حيث تبنيها لنظريات وبحوث علمية، وتعتبر "مدرسة فرانكفورت" حركة مؤثرة في الماركسية المعاصرة، حيث كانت تعتمد في المقام الأول على أعمال "ماركس" ولكن هي أيضا مدينة لـ "فرويد" و"ماكس فيبر" فكريا. تتكون هذه المدرسة من مجموعة من علماء الاجتماع ذوي المصالح وتأثيرات واسعة جدا، اشتغل معظمهم في معهد البحوث الاجتماعية. هذا الاخير كان على علاقة بجامعات متعددة وبالتزامن مع صعوبة النازية آنذاك، إنتقل المعهد إلى جامعة كولومبيا(نيويورك)أنذاك، حيث قامت "مدرسة فرانكفورت" هناك ببحوث تجربية هامة بشأن العنصرية والتحيز، وذلك بالتركيز في

كتاباتهم على نظرية المعرفة والثقافة والماركسية، ثم توجهوا بعد ذلك لدراسة جماهير الموسيقى والأدب، الإذاعة، نظرية المعرفة، والنظرية الإجتماعية.

تعطي هذه المدرسة الاولوية في تحليلها للمحيط الثقافي والإجتماعي الذي تتم فيه عملية الاتصال، ولذلك يطلق عليها البعض اسم " المدخل الإجتماعي الثقافي"، حيث تأثرت هذه المدرسة منذ البداية بالفكر الماركسي فكان أتباعها يركزون أساسا على المحيط الثقافي والإجتماعي والسياسي والإقتصادي للبلد الذي تتم فيه عملية الإتصال وقد اتفقوا جميعا على ضرورة التزام مواقف نقدية إزاء مجتمعهم، كما يجمعون أن الماركسية تمثل الإطار النقدي الأساسي للمجتمع، إلا أن هناك تطورات كثيرة طرأت مما كان يسلتزم ضرورة إعادة فحص الكفاءة النظرية للماركسية في ضوء المستجدات، والتي لا تقتصر على المجال الإقتصادي فقط، بل تشمل بالضرورة الظواهر الثقافية السائدة والجوانب النفسية للأفراد.

إن النظريات النقدية ترى أن وظيفة وسائل الإعلام هي مساعدة أصحاب السلطة في المجتمع على فرض نفوذهم والعمل على دعم الوضع القائم، لذلك كانت دراساتهم النقدية للاوضاع الإعلامية وإنتشار " الثقافة الجماهيرية" بديلا عن الثقافة "الراقية" أو "الرفيعة" التي ترتقي بأذواق الجماهير، لوضع تفسيرات خاصة بإنتشار صور المحتوى الذي تنشره وسائل الإعلام للترويج لمصالح الفئات أو الطبقات المسيطرة على المجتمع، وتعد نشأة ثقافة الإعلام آخر من الأدوات الخاصة بالهيمنة والسيطرة العقلية، التي تم تحديدها من قبل كتاب " مردسة فرانكفورت"، بالإصرار على أن دور الهيئات الثقافية والتي منها الموسيقى الشعبية والسينما والراديو والتلفزيون والفيديو لها أهميتها في عدم رغبة البشر في القيام بأي شئ سوى الإندماج بشكل سلبي في مساعدتهم ومعاونتهم، ومن ثم فإن المنظرين النقديون إشتهروا بإنعزالهم وإبتعادهم عن وسائل الترفيه الشعبية والعامة، بإعتبارها غير إنسانية وعديمة القيمة، كما إقتنعوا يأن للفن وظيفته الواضحة في جعل الحقيقة الواقعية تافهة.

إن ظهور وسائل الإعلام الجديدة ووسائل الاتصال الجماهيري والدور المتزايد للدولة في الاقتصاد أثبت أن مفاهيم الاقتصاد الماركسي في حاجة غلى إعادة النظر، والجلي أن الصورة المعاصرة من الوسائل التفاعلية التي يعتقد أن من شأنها إعادة تفويض السلطة إلى الجمهور، ومن ثم إستعادة نمط أكثر ديمقراطية من الحوار بين مرسلي الرسائل ومتلقيها، بينت أن الأمر أصبح في خبر كان، هذا ما أشار إليه " أدورنو" على ان الاتصالات تقيم التماثل بين الناس من خلال عزلهم.

وفي نفس السياق يشير "يورغن هبرماس" من خلال المجال العام إلى سجال حر بين متساويين، كما أدت وسائل الإعلام دورا محوريا في تطوير ثقافة النقاش المفتوح لكن التحول التجاري اللاحق لها جعلها على وشك التدهور الشريع و" إعادة التحول الإقطاعي" للمجال العام. نشير في هذا المقام إلى ان هناك منظرين آخرين قاموا بطرح مقاربة جديدة لمفهوم المجال العام أمثال أستاذ علم الإجتماع الإيطالي في جامعة نابولي " أرماندو سالفاتوري" في كتابة الذي ترجم للعربية بعنوان " المجال العام: "الحداثة اللبيرالية والكاثوليكية والإسلام"، و"غريغ كالهون" عبر التأكيد على أن فكرة وجود المال العام، هي في الأساس ذات مسارات تطورية طويلة الامد يمكن تتبعها في ثقافات وحضارات أخرى.

ومن هذا المنطلق فإن النظرية النقدية ركزت على أدوات ووسائل السيطرة العقلية الذهنية كمفتاح النجاح في الرأسمالية ةبالنسبة لها فإنها توجه ملامح لثقافة الرأسمالية لمحددات المنهجية التي تسترشد بها مجرسة فرانكفورت وهي كالآتي:

- **العقل الآداتي:** ويقصد بالعقل الآداتي، أنه منطق في التفكير وأسلوب رؤية العالم، ومعرفة علاقة الأشياء ببعضها البعض، انه طريقة النظر للعالم الذي يبرر سيطرة الأفراد أحدهم على الآخر وسيطرة النظام على تخدير وتغييب الأفراد.
- **أسلوب دمج الثقافة بالنظام الإجتماعي:** ويكون عن طريق دور الإعلام أو الثقافة الشعبية في عمليات التفكير للأفراد ومن ثم تحويلهم إلى عدم القدرة على نقد المجتمع الذي يعيشون فيه.
- **طبيعة البنية الشخصية:** التي شكلت من خلال النظام عن طريق سيطرة وإنتشار نمط معين من الشخصية الذي لا يقبل فقط السيطرة أو الهيمنة ولكنه كذلك يرغب بالنشاط.

إن مفهوم الثقافة الجماهيرية بإمكانه أن يتضح، أكثر، وبخاصة من ناحية تحول الأفكار/ النظرية إلى قوة مادية عندما تتعتنقها الجماهير، من خلال مفهوم محدد هو مفهوم **"الصناعة الثقافية"** الذي صاغه كل "ماكس هوركهايمر" و"تيودور أدورنو".

وقد صيغ المفهوم في ضوء ثلاثة مفاهيم كبرى يتمحور أولها حول مفهوم " صمنية السلعة" وفي دلالة على توسيع المفهوم الماركسي حت يشمل الإنتاج الثقافي بدلا من أن ينحصر في الإنتاج المادي فقط، ومن ثم جعل الثقافة منخرطة في الإنتاج الرأسمالي ككل.

ويشرح الباحث الإنجليزي جون ستوري، في كتابه " النظرية الثقافية والثقافة الشعبي"، ان الغاية من صياغة منظري مدرسة فرانكفورت لمفهوم الصناعة الثقافية هي التشديد على منتجات الثقافة الجماهيرية في افق التأكيد على طبيعة الإنتاج الثقافي ذاته وتميزه بخواص محددة وعلى وجه التحديد خاصيتي " التجانس والتماثل" في الثقافة الجماهيرية، وذلك كله حتى يتسنى للمجتمع الجماهيري نوع من الربط الديناميكي بين اشتراطات إنتاج النص الثقافي وحاجيات استهلاكه.

لقد أصبح من غير الممكن مخاطبة المجتمع إلا عبر منتوجات ثقافية قائمة في إطار من الصناعة الثقافية، وحتى الشعبية، التي كان من المفروض الدفاع عن تميزها عن الثقافة المصطنعة والمنتجة خارج تفاعل البشر في إطار علاقات مجتمعهم، صارت بدورها إنتاجا مصنعا، وقد حصل ما حصل للثقافة الشعبية من ناحية بنيتها الداخلية التي تصل ما بين عناصرها التكوينية ومن ناحية تشكيل " الوعي العام" الذي يميزها، فهذه البنية أصبحت في الوقت الحاضر منتجا يتم تصنيعه حسب ما جاء في كتاب هربرت شيللر " التلاعب بالعقول". وفي مقالة مشتركة مع ماكس هوركهايمر المعنون بـــ " صناعة الثقافة": التنوير وخدعة الجماهير"، والمتضمن في كتابهما المشترك " جدلية التنوير"، والذي تم عده أهم فصول الكتاب من ناحية تشخيص أزمة العقلانية الأداتية، شدد تيودور أدورنو على مخاطر المجتمع الصناعي على الثقافة، وخاصة الثقافة المتجانسة التي هي قرينة التسليع الذي يتحدد من خلال اسعار المنتجات التي لا تكون بالضرورة دقيقة تبعا لتحليل ماركس، فالسلع التي تنتجها صناعة الثقافة لا تقاس بالقيمة الإستعمالية، وإنما تقاس بقيمة مجردة يحددها السوق، وذلك كله في إطار من الإستهلاك الذي يفترض أنماطا جاهزة من الجماهير في سياقات هيمنة المال والسلع، خاصة

في ظل " قدرة المجتمع الصناعي على تحويل الثقافة الحقيقية إلى ثقافة جماهيرية إستهلاكية"، فالصناعة الثقافية من منظور مدرسة فرانكفورت، تعكس هيمنة القيمة التبادلية ووثنية السلعة وسطوة المال والرأسمالية في احتكار السلطة.

وتركيز مدرسة فرانكفورت على حقل الثقافة لافت وبارز... غير أنه ينبغي التشديد هنا ، على أن تشخيص أدورنو وهوركهايمر ليس للثقافة بعامة، وإنما للصناعة الثقافية تعيينا، ومعنى ذلك الثقافة في العصر التقني، وعلى النحو الذي أفضى إلى ما عبر عنه مارك دوران غاسلان (صاحب كتاب شهير حول مدرسة فرانكفورت) بـ" كارثة التشيئ وهيمنة الإدراك الحسابي".

وفي السياق نفسه، لم يعد من الضروري للهيمنة، ومن ثم القمع الملازم لها، أن يتما عن طريق الجيوش والأسلحة ورجال الأمن... فأدوار وسائل الإعلام والنشر، وتسخير المثقفين والمفكرين والخبراء، وتسليع الفنون...ذلك كله لا يقل خطوره وفاعلية على مستوى مقاومة النظام الرأسمالي. وكما يشرح إيان كريب، في "النظرية الاجتماعية"، فالمسالة لم تعد مسألة (أفكار-ألعاب) إنما مسألة (ألعاب- حقائق) يتم حشرها ضمن ماكينات الإيديولوجيا بدافع جعل البشر دمى للنظم الإجتماعية التي صنعوها بأييدهم، ومن ثم منشأ المفهوم المتحدر من أعمال ماركس الأولى وهو مفهوم " الإغتراب" في النظرية النقدية التي تعرف بها مدرسة فرانكفورت، وهو المفهوم الذي تطور إلى مفهوم " إختلال المعايير" عند إميل دوركايم، والحصيلة في مدرسة فرانكفورت، هي أن أصبح العالم الإجتماعي " وحشا إلكترونيا يتغذى على أعضائه ويتلاعب بمصائر البشر، ويقضي على أية مقاومة تبدو منهم على حد تعبير "إيان كريب".